خريدة لبنان

(الاب هنري لامنس اليسوعي)

١

في ذات صباح من ابهى ايام حزيران ظهرت عربة يجرّها ثلاثة من الخيل الضوامر على الطريق الممتدّة من بيروت الى دمشق وكانت الخيل تلهث اعياء وقد تصبّبت عرقاً راغياً وسنابكها تنشب في الارض فتثير الغبار المتلبّد بينما الحوذيّ ينشطها بصوت يشبه الطمطمة والكلاب تنبحها من دكاكين منفردة او بيت معتزل والقناطر تنفر من بين السنابل وتحلّق في الهواء صافرةً . هذا والشمس عند شروقها اوسلت اشعّتها الى العربة فرسمت لها من الظلّ صورةً تتابعها طافرةً وراءها بحركات غريبة بين الاشجار العارية والشجيرات الزيتية التي تلوح حيناً بعد حين على شفا الطريق

مضى على الخيل نحو الاربع ساعات بعد مزايلتها بيروت راقيةً في معارج الجبل تطوي الرُبى بين الخيزلى (مشية متناقلة) والهيذبى (مشية ثقيلة) او تراوح بين الخبب والتقريب (مشيٌ سريع) لا تقف الّا لحظة ريثما تتنفّس الصُعَداء حتى ادّاها المسير الى خانٍ منفردٍ شرقيَّ الطريق فاذا بالسائق وهو زنجيٌّ لامع السواد اوقفها وانحدر الى الارض اسرع من البرق وفتح باب العربة قائلاً : وصلنا يا سيدي هذا خان ابو القريه . فسُمع من الداخل صوتٌ لا تحدُّ لهجتُه مكرراً « وصلنا » ثمَّ خرج رجل طويل القامة وفي يساره خريطة حوت لا شكَّ بعض لوازم السفر . فمدّ السائق يده ليحملها عنهُ فامتنع هذا واخذ من جيبه قطعة من الذهب ناولهُ اياها . فبرقت عينا الحوذيّ سروراً واكثر من علائم الشكر وعبارات الامتنان عارضاً نفسهُ لكل خدمة . ولمّا لم يؤانس من الرجل اقبالاً عليه عمد الى خيله يكشط عنها رغوة العرق والغبار المتلبد وهو يدعوها بالطف الاسماء ويخاطبها بارقّ العبارات ريثما عاد اليها الرمق . فبادر الى بئر هناك غربيّ الطريق وجاء بماء صبَّهُ على مشافرها ودفقهُ بين قوائمها كل ذلك في لحظة . ثم استوى على كرسيّه وقرقع بسوطه ايذاناً بالرحيل والتفت الى المسافر قائلاً « انا راجع سيدي الى بيروت امر خدمة » فكان الجواب « مع السلامة » . فضغط بالعنان على الخيل عنّةً فمالت وزجرها فرسمت نصف دائرة تستقبل بوجهها بيروت وألهبها ضرباً

بالسوط فطارت تنهب الارض منحدرة في الوهاد الى ان توارت وراء اكمة فلم يبقَ منها اثر الا زوبعة غبار ثارت ثم ركدت ولم يعد يُسمع منها الا فرقعة السوط وهدير ودعدعها صدى الروابي حيناً وخمد

اما المسافر فمشى نحو دكانٍ هناك تلاصق الخان وكان الدكاني يبصر بالعربة ورآه نازلاً منها فأبدى حركات مختلفة اشارةً الى انهُ يصف الاواني ويهيئ ما يلزم وبادر احتفاء بالقادم الى لقائهِ واكثر من التأفف اليهِ وحمل عنهُ الحريطة وقدم لهُ كرسياً من الخشب قرب طاولة قد اكل الدهر عليها وشرب. وسألهُ ان يأمر بما يرغب وعدَّ لهُ قبل رجع النفس من المأكول والمشروب الوانًا واصنافًا. فطلب الرجل شراباً مبرّدًا وجاس يتأمل ما حواليه

وكان طويل القامة كما سبق القول يناهز الخمسين عامًا وربما ظنَّ الرائي انهُ جاوز الستين لو لم يدلّ نشاطه وبرق عينيه وابتسام ثغره انَّ قلبه انضرُ شبابًا من وجهه. على انهُ لعب البياض بلمّتهِ وشاربيهِ الكثيف وتجعّد جبينهُ ووجنتاهُ وبدت على محيّاه امارات عياء لا يمكن لها وصف وهي آثار ما قاساه من الاكدار والمشاقّ في صباه منبئة بحلول الشيخوخة قبل اوانها. بيدَ انهُ قويّ البنية راسخ القدم. وقد كان على رأسهِ قبعة بيضاء يلبسها الاوربيون في البلاد الحارّة وهو غاص في صدرية وسترة من الجوخ الاحمر وينطلون من الكتان الابيض ورانيز (طماقات) من الجلد الرمادي حتى لا يشكّ من رأى زيّهُ انهُ جوّالٌ انكليزي

فجاءهُ الشراب بعد ان اكثر الدكاني وولدان لهُ من الحركة ذهابًا وايابًا وهو يراقب الجميع بانعطاف ولسان حاله يقول: أليس فيكم من يعرفني أليس من يخبرني عنها. ولمّا لم يجد من يدرك معناه سعى في مبادلة الحديث فطلب تارجيلة لها قلب طويل من الخشب المرصع بعرق اللؤلؤ فوقهُ راس من النحاس الاصفر اللامع. فما لبث ان اقبل الدكاني حاملاً تارجيلةً من الزجاج الملوّن ويلتفّ عليها متلويًا كالافعى ماربيش يروق العين منظره في طرفه حلّمة من الكهرباء. فوضعها على الارض وحلّ الماربيش وثنى طرفه وقدّمهُ بكل احترام للضيف قائلاً «هاك سيدي اركيله لا يوجد مثلها في البلاد». وكانت تلك افخر مقتناه اتحفهُ بها احد المسافرين. فسألهُ الغريب: اوَ ليس عندكم تارجيلات من نحاس كالبيضة او من جوزة الهند؟

— لم نعد نستعملها من عشرين سنة

— عشرين سنة ؟ قال الرجل ذلك متنهداً ثم اردف : وما حلّ بالنوفرة وبصورة نابوليون التي كانت معلّقة على الجدار ؟

فنظر اليهِ الدكاني باندهاش ثم قال : انت عارف كل شيء . كانك قضيت عمرك في هذه الضيعة . لا خفاك ان صاحب المحلّ غيّر من سنتين وبدّل اشياء كثيرة ومن الجملة هدم النسقيّة والنوفرة وحوّل الماء الى الجنائن . ولمّا كنّس الحيطان رفع الصورة لانها صارت قديمة وعلى ظني اصبحت الدكان احسن من قبل . قال هذه العبارة بلهجة افتخار ونظرة معنوية

لكنهُ رأى الغريب هزّ رأسه للنفي اشارة الى انهُ لا يوافقهُ على عبارتهِ فاردف كلامهُ بقولهِ : امّا الصورة فهي لم تزل باقية عندنا مطروحة في الزوايا . فشرقت عندئذٍ اسارير وجه الغريب ودخل معهُ الى حيث اشار ثم عاد يحمل الصورة ويتأملها بلهفة وقد دار بهِ ابنا الدكاني يحدّقان اليهِ بدهشة ويحوّلان عنهُ الى ابيهما نظر مستفهم . ولا ريب انهُ اخذ منهُ الفرح مأخذه اذ كانت تتلى على وجههِ اساطير الحبّ والفوز ويومض من عينيهِ المغرورقتين بالدموع برق السرور حتى ان الصبيين مالا اليهِ اي ميل . فأخذ يديهما الناعمتين وقال : تستغربان ما بدا مني ولا يتضح لكما سرّ ما يخامرني من التأثر لرأى هذه الصورة . فاعلما اني انا ايضاً ربيت هنا صغيراً وطالما رافقت ابي الى هذا المكان فكم قضيت ساعات ألعب بالنوفرة وأمتّع العين بمنظر الماء تتكسّر عليهِ اشعة الشمس فيتناثر دراً غوالي في النسقية وانا ارقص طرباً لهذا المشهد البديع . امّا الصورة فكنت احبّ التأمل فيها وتقرّ عيني بمنظر هذا البطل العظيم . واليوم امسى الصبيّ رجلاً طاعناً في السنّ وعلا البياض راسه وزالت نضارة وجههِ . ذاك الصبيّ ابعدتهُ صروف الدهر عن اوطانهِ وطرحتهُ مطارح الاسفار الى مجاهل افريقيا الجنوبية فقضى فيها عشرين سنة ولكنهُ لا يزال يذكر النوفرة والصورة كانهُ لم يمضِ الّا يومٌ من حين جاء بهِ ابوهُ آخر مرّة الى هذا المكان . فسأل احد الصبيين : إذن انت من بلدنا ؟

فاجاب الرجل طافحاً بالسرور : نعم من ضيعتكم . لكن هذا التصريح لم يأتِ بالنتيجة المرغوبة فان الصبيين قابلاه بابتسامة لطيفة ليس الّا ولم يبديا ادنى اندهاش او علامة فرح ممّا علماهُ من ان الرجل ابن الوطن لا احد الجوّالين الاوربيين الذين يطوفون ايام الصيف في اصقاع لبنان . ولم يجد لهذا النبأ وقع عظيم في قلب الدكاني ولذا لم يرجُ التعرف اليهِ فسألهُ : اين صاحب الخان ريشا ؟

— انت تعني طانيوس فهذا قد مات من زمان

— وامرأتهُ العاذلة آسين ؟

— ماتت ايضاً

— ماتت ؟ ماتت ؟ قال الغريب متنهداً : وعبدالله الراعي صاحب الشبابة المشهورة الذي كنا نقضي معهُ اياماً ؟

— انت تعرف الكل . لكن لم يبقَ احد وهذا ايضاً مات

٢

فاطرق المسافر وغاص في بحر الافكار المحزنة قائلاً في ذاته . جئت استعلم اخبارها فلا اجسر على السؤال اذ بتُّ اخشى الجواب . لكنهُ عاد الى نفسهِ بعد حين لمَّا رأى احد القرويين اقبل يحمل حزمة من الاشواك والاغصان اليابسة كان جمعها من الاحراش المجاورة فطرحها عند المدخل وجلس يستريح على محطبة هناك ويمسح باذيال عباءته وجههُ المكلل بالعرق . فما تأملهُ الا صرخ بصوت الحبور وبادر اليهِ ومدَّ يده ليصافحهُ . فتفرَّس فيهِ الحطَّاب مستغرباً وكأنهُ لم يكترث لهُ . فصاح المسافر : وانت ايضاً يا بطرس منصور لا تعرفني ؟ فاعتذر الحطاب وحلف انَّهُ لا يعرف لهُ صورة قبل ذاك اليوم

فسألهُ : ألا تذكر الرجل الذي خاطر بروحهِ لينتقذك من بين ارجل حصان جموح ؟

فلم يكن الحطاب ليفهم كلامه

— هل نسيت الشاب الذي كان يدفع دائماً عنك تعدّيات اولاد الضيعة وعلَّمك الهاً كثيرة واركبك مراراً على حصانه ؟

— أذكرُ ان المرحوم والدي اخبرني مرَّة اني لمَّا كان عمري خمس سنين كاد يدعسني الحصان لولم يخلصني حنَّا الطويل . لكن هذا سافر من عشرين سنة الى بلاد بعيدة وراء البحر ومن ذاك الحين لم نعد نسمع خبراً عنهُ وما ادرانا . لعلَّ اليوم تكون عظامه صارت مكاحل . الله يرحم ترابه

فصاح الغريب بفرح اذن تعرفني الآن انا حنَّا الطويل بل حنا غنطوس . ولمَّا رآه لا يبدي ولا يعيد اردف كلامه بقولهِ : ألا تذكر الصيَّاد الذي اشتهر في هذه الضيعة حتى كان لا يتقدم عليه احد كلما هجم ذئب او ضبع فكان هو وحدهُ يخلص البلد من شرّ الوحوش ويصيب دائماً لا يخطئ ولا مرَّة . فانا انا الصيَّاد حنا غنطوس (ستأتي البقية)